



أسوار القدس

شهادة أخرى على عروبة القدس وإسلاميتها

عزيز العصا

باحث مختص في شؤون القدس

مقدمة

كانت زيارة الخليفة عمر بن الخطاب للقدس في العام 15هـ/ 638 م وتسلمه مفاتيحها «سلمياً» من سكانها الأصليين بقيادة البطريرك صفرونيوس، ذات أثر مفصلي في تاريخ العرب والمسلمين. فقد كانت بمثابة الحلم بالنسبة للمسلمين أن يروا مكان الإسراء والمعراج لنبیهم صلى الله عليه وسلم. وهي تجديد لعروبة القدس التي كان يتنازعها الفرس والرومان والبيزنطيون وغيرهم من الأقوام التي سعت إلى إلغاء كنعانية المدينة ويوسيتها. كما شكّلت العهدة العمرية تحولاً نوعياً في العلاقات بين المتحاربين، وبين المهزوم والمتصر؛ إذ تعود الناس على أن من ينتصر يمارس بحق المهزوم كل أنواع البطش والتشريد والتدمير والمحو، ومن ثم إنشاء الكيان المنتصر على حساب المهزوم، أياً كان عمقه التاريخي على الأرض.

لقد عزز عمر بن الخطاب تلك العهدة بأن توجه إلى مكان الإسراء والمعراج، وفق توجيهات مضيفه «صفرونيوس»، دون أن يفكر في المساس بممتلكات أهل البلاد أو يمس مشاعرهم. فشرع بالعمل في منطقة «الحرم حالياً» بأن بنى مسجداً للمسلمين مما تيسر من مواد وأدوات

وأقام الصلاة فيه قبل أن يغادر إلى مقر قيادته المتواضع الذي يدير منه شؤون الإمبراطورية الناشئة، بل التي تتسارع نحو النمو والتطور الناجم عن الفتوحات والانتصارات التي أصبحت تتحقق في كل مكان، حتى وصلت إيوان كسرى وسواريه وتاجه التي وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم سراقه بها إبان هجرته من مكة إلى المدينة.

يؤكد الخبراء والأثريون أن «منطقة الحرم» حالياً وجوارها من الجهتين الشرقية والجنوبية لم تكن معمورة في حينه؛ وذلك لإهمال البيزنطيين لها، وجعلها منطقة للقمامة¹. منذ ذلك التاريخ أخذت القدس، في ظل الحكم الإسلامي، تشهد حراكاً عمرانياً مركزه الرئيسي منطقة الحرم؛ من مباني ومنشآت وأسوار وجدران تحمي المدينة ومن يقطنها.

سوف نركز في هذا المقال على أسوار القدس، من حيث: التطور عبر التاريخ، والمراحل المختلفة التي مرت بها وصولاً إلى يومنا هذا الذي أخذ يشهد حراكاً جاداً لدولة الاحتلال من أجل إزالة تلك الأسوار أو العبث بها، بما فيها من ملامح حضارية تحملها الأسوار والأبواب التي تشكل شهادة حية على عروبة المدينة وإسلاميتها.

أسوار القدس: نبذة تاريخية

بنى اليبوسيون القدس منذ (3000) سنة قبل الميلاد؛ وهم بطن من بطون العرب الأوائل، نشأوا في الجزيرة العربية، ثم نزحوا عنها مع من نزح من القبائل الكنعانية، فاستوطنوا هذه الديار. وأول من بنى المدينة الملك اليبوسي «ملكيسادق»، ثم الملك «سالم اليبوسي» الذي شيد على جبل صهيون برجاً بهدف الدفاع عن المدينة التي كانت تسمى «يبوس» ومحاطة بسور منيع².

في العصر البرونزي الوسيط (2000 ق. م - 1550 ق. م) أحيطت المدينة بنظام دفاعي، مكون من عناصر تحصينية متعددة، حيث تميزت فيها فلسطين خلال هذا العصر البرونزي. اكتشفت أجزاء من البوابة في القسم الشمالي للمدينة، بالإضافة إلى سور المدينة والذي لا بد أنه كان يحيط بالمدينة من جوانبها المختلفة، بالإضافة إلى ذلك فقد تم الكشف عن مدخل ذي سقف حجري في داخل المدينة ويؤدي إلى نفق محفور كلياً في الصخر والذي يحتوي على

1- أبوخلف، مروان (2010). التطور المعماري لمدينة القدس في الفترة الإسلامية. مجلة جامعة القدس المفتوحة. العدد (18). ص: 11 - 40.

2- العارف، عارف (1951). تاريخ القدس. دار المعارف بمصر. ص: 11 - 12.



درجات صخرية تؤدي إلى بئر الماء (عين سلوان) في أسفل التل. إن هذا النظام المائي بدوره شكل عنصراً دفاعياً أساسياً في النظام التحصيني لمدينة القدس في هذا العصر¹.

وهناك من يقول بأن مدينة القدس كانت محاطة بالأسوار منذ أول نشأتها: ففي سنة 1960م بدأت الأنسة كينون حفريات، وتوسعت في الحفر نحو الشمال إلى أن وصلت إلى سور يمكن إرجاعه إلى 1800 ق.م وهو السور اليوسبي كما ذكر أعلاه. وكادت نتائج الحفريات تقنع الدكتور كينون، أن المدينة اليوسبية، كانت شرقي أسوار المسجد الأقصى (الحرم) وعلى السفح المنحدر إلى وادي قدرون، ولم تكن على جبل موريا حيث يقوم المسجد الأقصى (الحرم الشريف)².

في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، حصلت سلسلة تغيرات جذرية في نسيجها المعماري، فقد بلغت مساحتها حوالي 125 أكرا، وبلغ عدد سكانها حوالي 10000 نسمة. وأحاط بها سور ضخمة تراوحت سماكته بين 5 و7 أمتار. إلا أنه تم تدمير المدينة من قبل البابليين عام 587 ق.م³.

وقد نفذ هيرود (ت سنة 4 ق.م) برنامجاً معمارياً وإنشائياً ضخماً خلال فترة حكمه حيث أعاد بناء أسوار المدينة، وعمد إلى بناء قلعة أنطونيا، وبوفاته انقسمت مملكته بين ورثته، وسرعان ما اندلعت الحرب بين اليهود والرومان في الوقت الذي شبت فيه الفتن والصراعات أيضاً بين اليهود، واتجه القائد الروماني تيطس Titus عام 70م إلى المدينة ونجح في تدمير أسوارها وحرّم الرومان على اليهود الاقتراب من مدينة القدس⁴.

واتضح من الحفريات الأثرية أن السفح الذي ينحدر إلى وادي سلوان حتى عين أم الدرج، كان موقعاً للسور الروماني الذي قام على أسس يونانية، لا تتجاوز القرن الثالث قبل الميلاد، كما عثروا على الآبار والصهاريج التي تعود إلى المدينة الرومانية التي بناها الرومان

1- أبوخلف، مروان، وطوقان، نادين (2017). النسيج المعماري للقدس عبر العصور. في «مجلة التراث والمجتمع. العدد (60). جمعية إنعاش الأسرة. البيرة. فلسطين. ص: 43 - 61». ص: 47.

2- شراب، محمد حسن (2003). موسوعة بيت المقدس والمسجد الأقصى المبارك. الأهلية للنشر والتوزيع. عمان. الأردن. ط1. ص: 509.

3- أبوخلف وطوقان (2017). مرجع سابق. ص: 43 - 61». ص: 48.

4- أبوخلف وطوقان (2017). مرجع سابق. ص: 50.

سنة 135م باسم «إيليا»¹.

لا يُعتقد أن القدس مرّت بفترات طويلة بلا أسوار، إذ أن السور الحالي للقدس، وهو الأحدث، يقوم على أسوار قديمة كانت قد أنشئت عبر العصور السابقة. ففي أواخر العام 1939م وأوائل العام 1940م قام عالم الآثار «جونس» بدراسة قبة النبي داود ومقامه - كان معسكراً حربياً في أيام الأتراك-، فنجح في معرفة أسرار تاريخية تتعلق بالسور الحالي الذي يشرف على خارج المقام والذي يعتبر «باب الخليل» قسماً منه. ومن تلك الأسرار²:

(1) ظهر من فحص السور أنه بني على (12) طريقة؛ أي أن (12) عهداً وشعباً قد اشتركت في بنائه وردمه وتكاملته وإصلاحه، فالحجارة السفلى في السور تدل على أن أسسه وضعت قبل أن يعرف الناس طريقة البناء بواسطة لصق الحجارة بالطين بعضها إلى البعض، بل روعي في وضع هذه الحجارة أن تكون كبيرة تلتصق بعضها البعض دون طين ولا كلس.

(2) السور الذي يشرف على المقام بناه الصليبيون والمماليك وأن السلطان صلاح الدين قد أقام قسماً منه.

(3) كان السور موجوداً قبل هيرودوس؛ إذ وجدت فيه أسلحة يونانية قديمة من النوع الذي كانت تستعمله عائلة ساوكوس المالكة اليونانية ضد اليهود.

(4) القبة التي تمثل مقام النبي داود الآن هي واحدة من ثلاث قباب أنشأها الملك هيرودوس في السنة الخامسة والعشرين قبل الميلاد، وجعلها داخل السور من جانبه الشمال الغربي للمدينة القديمة.

أسوار القدس: منذ الفتح العمري حتى تاريخه

لم يتوفر ما يدلّ على اهتمام المسلمين في السنوات الأولى من حكمهم للمدينة بالتحصينات والأسوار والجدران حول المدينة، لم تشر المصادر التاريخية أو الدلائل الأثرية إلى أي تغيير على تخطيط المدينة البيزنطية في الفترة الإسلامية الأولى، وأن التدخل في النسيج المعماري

1- شراب (2003). مرجع سابق. ص 508.

2- صحيفة الدفاع في 10 نيسان 1940م، ص: 2.



في المدينة كان يتركز على المنطقة الشرقية بدءًا من العصر الأموي. فقد بنى الأمويون قبة الصخرة والمسجد الأقصى وعملوا على إصلاح وترميم الأسوار وفتح الأبواب¹. وسوف نناقش، فيما يلي، ما يتعلق بأسوار القدس خلال الحقب المختلفة، التي تبعت الفتح العمري، منها:

أولاً: في الفترة الأموية: لبناء أبنية كالتي أنشأها الأمويون، لا بد أن يكون قد أعيد بناء الأسوار لهذه المنطقة، بالإضافة إلى بناء المداخل المؤدية إليه وتشييدها، كما يتطلب وضع خطة بناء لإنجازها، حيث تذكر المصادر التاريخية أن عبد الملك بن مروان أعاد بناء جدار منطقة المسجد، وبشكل أساسي الجدار الشرقي الموجود عليه الباب الذهبي (باب التوبة والرحمة باب النبي)، وكذلك الجدار الجنوبي الغربي الذي فتح فيه بابان: الباب الثلاثي والباب المزدوج، وكلا الجزئين يشكلان جزءاً من سور المدينة الكبير².

علمًا بأنه عندما زار أسقف فرنسي القدس في العام (670 م) -وهو عهد معاوية بن أبي سفيان- مما قاله عن المدينة: «كان على سور بيت المقدس يومئذ (84) برجًا، وله ستة أبواب ثلاثة منها فقط تستخدم للدخول والخروج: واحد غربي المدينة والثاني شماليها والثالث شرقيها»³.

ثانيًا: في الفترة العباسية: أظهر العباسيون اهتمامًا بالمدينة المقدسة؛ فقد زارها الخليفة الثاني «أبو جعفر المنصور» عند عودته من الحج سنة (140هـ/758م)⁴. وقد ضربت بيت المقدس هزتان أرضيتان أصابتا المسجد الأقصى وألحقتا دمارًا كبيرًا به؛ كانت الأولى في سنة (131هـ/748م)، والثانية سنة (154هـ/771م)⁵.

فأمر المهدي سنة (163هـ/780م)، وقام المأمون سنة (216هـ/831م) ببناء الأبواب

1- أبو خلف وطوقان (2017). مرجع سابق. ص: 52.

2- أبو خلف (2010).

3- العارف، عارف (1999). المفصل في تاريخ القدس. مكتبة الأندلس. القدس. ص: 106.

4- الدوري، عبد العزيز (1992). القدس في الفترة الإسلامية الأولى (من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر). في «القدس في التاريخ. تحرير كامل جميل العسلي. الجامعة الأردنية. عمان. الأردن». ص: 129 - 157، ص: 139.

5- محسن، هشام (2002). الزخارف الحجرية العثمانية على سور القدس -دراسة أثرية وتاريخية وفنية-. رسالة ماجستير. غير منشورة. جامعة القدس. ص: 2.

الشرقية والشمالية للحرم، وأصلحت الأسوار أو أعيد بناؤها عند تضررها من البشر أو الزلازل¹.

وبحسب بورغون (Burgoyne, 2000) فإن سور القدس مر منذ العهد الأموي حتى نهاية العهد الفاطمي مرت بالأحداث التالية²:

السنة	الحدث
692م	قام عبد الملك بن مروان، وإلى جانب بناء قبة الصخرة المشرفة، بإعادة بناء جدران الحرم.
745م-746م	انهيار سور المدينة.
746م-749م	زلزال ضرب المدينة.
754م-780م	إصلاحات العباسيين للحرم، وقد تكون شملت إصلاحات في السور.
756م-757م	زلزال ضرب المدينة.
808م	زلزال ضرب المدينة.
961م	قام الحاكم الإخشيدى بإصلاح الجزء الشرقي من السور (هناك نقش يشير إلى ذلك).
1016م	زلزال ضرب المدينة.
1033م-1034م	زلزال ضرب المدينة.
1033م-1036م	قام الحاكم الفاطمي بإصلاح جدران الحرم (هناك نقش يشير إلى ذلك).
1068م	زلزال، وقام الحاكم الفاطمي بالإصلاح (هناك نقش يشير إلى ذلك).
1098م	الفاطميون يقومون بتقوية سور المدينة بسبب اقتراب الغزو الصليبي.

1- الدوري (1992). مرجع سابق.

2- Burgoyne, M. H. (2000). The east wall of the haram al-sharif: A note on its archaeological potential. In "Ottoman Jerusalem: The Living City, 1517-1917. Edited by: Sylvia Auld and Robert Hillenbrand. Architectural survey by: Yusuf Natsheh. Altajir World of Islam Trust. London. Part I. p: 92 - 479.



يتضح من الجدول أعلاه أن القدس تعرضت في زمن العباسيين إلى زلزالين خلال الفترة (756م-808م)، مما يعني تدميرًا لسورَي المدينة والحرم ولو جزئيًا، ويبدو أن الوضع بقي في حالة من البؤس حتى منتصف القرن الرابع الهجري في العام (350هـ/961م)؛ وهو العام الذي أمر فيه الحاكم الإخشيدي بإصلاح الجزء الشرقي من السور (هناك نقش يشير إلى ذلك).

وفي القرن الخامس الهجري تعرض بيت المقدس، وفلسطين بشكل عام، إلى مجموعة من الأزمات المتلاحقة، المتمثلة بالكوارث الطبيعية والقتال الداخلي التي سبقت الغزو الصليبي، منها¹:

- 1) سنة (425هـ/1034م) سقط تنور قبة الصخرة ببيت المقدس، وفيه (500) قنديل.
- 2) سنة (460هـ/1068م) كانت زلزلة بأرض فلسطين أهلكت بلاد الرملة، وغار البحر مسيرة يوم ودخل الناس في أرضه يلتقطون منه، فرجع عليهم فأهلك خلقًا كثيرًا منهم.
- 3) سنة (463هـ/1071م) في أيام المستنصر بالله العبيدي خليفة مصر استولى على القدس والرملة «آسر بن أوق الخوارزمي» صاحب دمشق.
- 4) سنة (465هـ/1073م) استولى «آسر» المذكور أعلاه على دمشق وأقيمت الدعوة العباسية في بيت المقدس.

5) وفي سنة (489هـ/1096م) استولى الخليفة العلوي من مصر على القدس.

6) في سنة (489هـ/1097م) فرضت القوات الفاطمية حصارًا على بيت المقدس، الذين كان يحكمه السلاجقة، دام نحو أربعين يومًا، ولم تستسلم القوات السلجوقية إلا بعد أن ضربت المدينة بأكثر من أربعين منجنيقًا دمرت جزءًا من سورها².

لقد كان هناك سورًا لمدينة القدس في العهد الفاطمي، ومما يؤكد وجود هذا السور قيام افتخار الدولة -حاكم المدينة الفاطمي- بتقوية تحصينات المدينة، والتأكد من سلامة أسوارها، معتمدًا على حامية كبيرة من الجنود المصريين والسودانيين المسلحين تسليحًا جيدًا، وكذلك على سكان

1- الحنبلي، مجير الدين (1973). الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل. مكتبة المحتسب. عمان. الأردن. الجزء الأول. ص: 304 - 310.

2- البشاوي، سعيد (د.ت). القدس والتاريخ. جامعة النجاح الوطنية. انظر الرابط التالي (أمكن الوصول إليه بتاريخ: 2019/03/31):

المدينة ومن وفد إليها من سكان المدن والقرى المجاورة¹.

وعندما زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو المسجد الأقصى قبل الاحتلال الصليبي له، أشار إلى وجود رواق في الجهة الشرقية للحرم القدسي الشريف، ولكنه تهدم واندثر جراء الهزات الأرضية التي حدثت في القدس².

ثالثاً: منذ الفتح الغزو الصليبي حتى آخر الحقبة الأيوبية:

حاصرت قوات الفرنجة القدس عند قطاعين رئيسيين من السور: في الجنوب والشمال، واستمرت مهاجمة القوات الصليبية لأسوار المدينة زهاء أربعين يوماً، دافع خلالها رجال القدس ونساءؤها عن السور الشمالي ببسالة، كما عمد المدافعون عن المدينة من المسلمين إلى حماية أسوارهم بالأكياس المحشوة بالقش والتبن وبالخبال والسجاجيد والدعامات الخشبية الضخمة والفرش المحشوة بالحزير³.

عند الغزو الصليبي بقيت أسوار القدس سليمة بصورة عامة، لأن الحصار لم يصعبها بأضرار خطيرة. وقد أصلحت الأضرار وأضيفت إضافتان جديدتان: برج تانكرد في الزاوية الجنوبية الغربية من الأسوار في حي البطرك، وباب القديسة مريم المجدلية في الزاوية الشمالية الشرقية، وبني قصر جديد للملك اللاتيني شرقي برج داود، وبنيت فنادق وأنزال للحجاج الأوروبيين والشرقيين، وغيرت أسماء أبواب المدينة وشوارعها، كما بنيت أسواق جديدة⁴.

ودأب الفرنجة على ممارسة مجموعة من الطقوس والاحتفالات، منها احتفالهم في الخامس عشر من تموز (يوليه) من كل عام بالاستيلاء على القدس، وفق الطقوس التالية⁵:

- في الصباح الباكر من ذلك اليوم، كان البطريرك يقود موكباً من كنيسة القيامة يتوقف لأداء الصلوات عند قبة الصخرة.

- بعد إتمام الصلوات، يتقدم الموكب إلى المقبرة الكائنة وراء الأسوار؛ حيث دفن الفرنجة

1- البشاوي (د.ت). مرجع سابق.

2- أبوخلف، مروان (2010). التطور المعماري لمدينة القدس في الفترة الإسلامية. مجلة جامعة القدس المفتوحة. العدد (18). ص: 11 - 40.

3- الحيارى، مصطفى (1992). القدس تحت حكم الصليبيين (1099م-1187م). في «القدس في التاريخ». تحرير كامل جميل العسلي. الجامعة الأردنية. عمان. الأردن». ص: 167 - 202.

4- الحيارى (1992). مرجع سابق.

5- الحيارى (1992). مرجع سابق.



الذين سقطوا أثناء الاستيلاء على القدس.

- بعد ذلك، كان جميع المشاركين في الاحتفال يعبرون شارع باب الأسباط وراء سور الحرم الشمالي، ثم يتوجهون إلى ذلك الجزء من سور المدينة الشمالي الذي دخل الفرنجة منه إلى المدينة (برج اللقلق).

- هنا، يلقي البطريك عظة أمام الجمع المحتشد ثم تؤدي صلوات الشكر!

يتضح من هذا كله أنه كان لسور المدينة مكانة خاصة لدى الصليبيين، ليس على المستوى الأمني والدفاعي وحسب، وإنما تم توظيفه في المفاهيم العقائدية وربطه بالاحتفالات الدينية. وبقي بيت المقدس في أيدي الصليبيين لمدة (91) سنة هجرية، حتى أذن الله سبحانه وتعالى وقدر فتحه على يد صلاح الدين الأيوبي (شوال 583هـ/ كانون الأول 1187م).

رابعًا: القدس الأيوبية:

بعد أن انتصر صلاح الدين الأيوبي في حطين سنة 583هـ/ 1187م، توجه بنفسه صوب بيت المقدس، وعندما بحث عن مكان يقاوم الفرنجة منه، فلم يجد موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب العمود، حيث نصب المجانيق من هذا الجانب، وهاجم الصليبيين، ما دفعهم للتسليم طلب الصلح فورًا، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار القدس يوم الجمعة وفق 1187/10/02م¹.

أبقى صلاح الدين معسكره خارج المدينة، وأدرك خلال إقامته القصيرة في المدينة الحاجة إلى تحصين سورها وتقويتها ليصمد أمام الحصار والهجوم في المستقبل. إلا أنه لم يكن ثمة تهديد مباشر في حينه، وكان في وسع الأسوار أن تنتظر؛ لأنه كانت هناك إجراءات أكثر إلحاحًا تتعلق بإزالة الإضافات العمرانية التي كان قد أحدثها الصليبيون في الحرم الشريف².

في العام (587هـ/ 1191م)، وعندما تنفس السلطان صلاح الدين الصعداء عاد إلى القدس وشرع في إصلاح سور المدينة وتأهيله، كما يلي³:

1) بنيت من جديد أقسام كاملة من السور وحصنت بالأبراج؛ فقد جدد أبراجًا حربية من باب

1- البشاوي (د. ت).

2- نل، دونالد (1992). القدس تحت حكم الأيوبيين والمماليك (1187م-1516م). في «القدس في التاريخ». تحرير كامل جميل العسلي. الجامعة الأردنية. عمان. الأردن». ص: 205 - 230.

3- الحيارى (1992). مرجع سابق.

العمود إلى باب الخليل¹، وحفر خندقاً عميقاً في الصخر، واستعملت الحجارة المستخرجة في البناء، وأشرف صلاح الدين بنفسه على العمل حتى أنه ساعد في حمل الحجارة.

(2) وزعت أقسام السور والأبراج على المشاركين، وأسهم أبناء صلاح الدين وأقاربه وأمرأؤه ورجاله. فقد قام الملك العادل -أخو صلاح الدين- بتحصين القسم الجنوبي الغربي على جبل صهيون، بحيث أدخلت الكنيسة القائمة هناك وبعض الأبنية ضمن السور الجديد.

استمر العهد الأيوبي في القدس حتى العام 1250م، تخلله أحداث جسام؛ إذ لم تستقر القدس في أيدي الأيوبيين، وإنما كانت في حالة قلق دائم بسبب الشحنة والبغضاء بين أبناء صلاح الدين الذين تقاسموا إرثه في مصر وبلاد الشام: الملك المعظم عيسى، والملك الكامل والملك الأشرف. وقد هادنوا الفرنجة وتحالف معهم كأبناء الملك العادل، والملك العادل الذي أبرم صفقة التنازل عن القدس مع فريدريك الثاني سنة 1229م². علمًا بأن الملك المعظم عيسى اختار القدس مقرًا له، ورعى فيها الكثير من الأعمال العمرانية³.

وأما بشأن سور القدس، فعندما علم الملك المعظم عيسى بأن جماعة من الفرنجة كانوا يدبرون للاستيلاء على القدس، أمر بهدم أسوار القدس وتحصيناتها، وحضر إليها في العام 616هـ/ 1219م ليشرّف بنفسه على عمليات الهدم والتدمير، فسويت أسوار القدس بالأرض ومعظم القوات المقاتلة سحبت منها إلى مناطق أخرى، كما نقل ما كان في المدينة من الأسلحة وآلات القتال إلى دمشق⁴.

وعندما كان هناك جولة مفاوضات خاضها الملوك المذكورين أعلاه مع الفرنجة لتسليم القدس وجميع ما حرره صلاح الدين من الساحل الفلسطيني ولبنان، مقابل الجلاء الفرنجي عن دمياط وعدم مهاجمة القاهرة، كان من بين شروط الفرنجة أن يدفع الأيوبيون مبلغ (300,000) دينار مقابل إعادة ترميم أسوار القدس وأبراجها التي كان الملك المعظم عيسى قد أمر بتدميرها⁵.

في شباط من العام 626هـ/ 1229م عُقدت اتفاقية يافا، مدتها عشر سنوات، بين الملك الكامل

1- العارف (1999). مرجع سابق. ص: 180.

2- عثمانة، خليل (2016). فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. الطبعة الأولى. ص: 214.

3- لتل، دونالد (1992). مرجع سابق.

4- لتل، دونالد (1992). مرجع سابق: الحيارى (1992). مرجع سابق.

5- عثمانة، خليل (2016). مرجع سابق. ص: 137 - 138.



والإمبراطور فريديريك الثاني تضمنت نصًّا بأن «تسلّم القدس للإمبراطور على أن تظل أسوار المدينة وتحصيناتها خرابًا وألا تجدد الأسوار»¹.

إلا أن الصليبيين اخترقوا هذه الاتفاقية عندما قاربت الهدنة على نهايتها، فقاموا بعمليات ترميم أسوار مدينة القدس وأبراج قلعتها، التي لم يكن قائمًا منها سوى برج داود بعد أن تركه الملك المعظم عيسى سالمًا ولم يدمره. وعندما نما ذلك إلى علم الناصر داود نجل الملك المعظم عيسى، توجه على رأس جيشه وحاصر المدينة ورمها بالمنجنيق حتى دخلها في أيلول من العام (637هـ/1239م) بعد (21) يومًا من الحصار². وسمح الناصر داود للفرنجة بمغادرة المدينة بسلام³.

سادسًا: القدس المملوكية:

ترافقت الحقبة المملوكية التي استلمت زمام الأمور من الأيوبيين مع حالة ضعف الصليبيين وانكفاءهم عن المطالبة بالقدس؛ التي لم تعد هدفًا لعدوانهم أو أي عدوان آخر، فاستقر الحال للمماليك في المدينة. الأمر الذي جعلهم -المماليك- لم يروا سببًا لإعادة بناء أسوار المدينة طوال فترة حكمهم التي امتدت على مدى قرنين ونصف ونيف (1250م-1517م)⁴.

إلا أن مجير الدين الحنبلي يذكر أنه سنة (695هـ/1296م)، وفي عهد السلطان الملك العادل جدد عمل فصوص الصخرة المشرفة، وجدد عمارة السور الشرقي المطل على مقبرة باب الرحمة⁵. وأما الملك الناصر بن قلاوون (709هـ/1309م-741هـ/1341م)⁶ فقد عمر في أيامه السور القبلي الذي عند محراب داود عليه الصلاة والسلام⁷.

خامسًا: أسوار القدس في الحقبة العثمانية: 1516م - تاريخه:

في أواخر القرن الخامس عشر تدهور الوضع السياسي والاقتصادي والديني في القدس، شأنها في ذلك شأن المدن الأخرى في الإمبراطورية المملوكية. وطيلة عشر سنوات في أوائل القرن

1- عثمانة، خليل (2016). مرجع سابق. ص: 141 - 142.

2- عثمانة، خليل (2016). مرجع سابق. ص: 144 - 145.

3- البشاوي (د. ت). مرجع سابق.

4- لتل (1992). مرجع سابق.

5- الحنبلي (1973). ج. 2. ص: 90.

6- لما توفي تسلطن بعده ثمانية من أولاده لصلبه (أنظر: الحنبلي (1973). ج. 2. ص: 93).

7- الحنبلي (1973). ج. 2. ص: 91-92.

السادس عشر عانى المماليك من صعوبة السيطرة على القدس¹. وفي العام 1517م بدأ العهد العثماني للقدس بزيارة السلطان سليم الأول، فوجدها فقيرة وسورها مهشّم. وقبل أن يغادر السلطان إلى مصر قرر تدمير السور. ويعتقد عارف العارف بأن هناك أسباباً أخرى حدثت به للتفكير في تدمير السور، وهي: خشيته من اعتداء الجيوش القوية، التي لم تنقطع في عصر من العصور من عبور فلسطين، سواء من الشمال أو من الجنوب².

لم يتمكن السلطان سليم الأول تنفيذ وعده في تدمير السور، فجاء السلطان سليمان القانوني (1520م-1566م) الذي شهدت القدس في عهده إصلاحات وترميمات داخل المدينة دعت إليها أمور عدة، ومنها: (1) اتساع المدينة. (2) زيادة عدد السكان؛ إذ شهدت المدينة نمواً متزايداً بشكل مضطرد في عدد سكان القدس، فبينما كان عدد ساكنيها لا يتجاوز (4,000) نسمة عام 932هـ/1525م، ارتفع العدد إلى حوالي (13,000) نسمة سنة (960هـ/1553م)، ويعدّ مؤشراً على الجاذبية الجديدة للمدينة³.

يروى أن السلطان سليمان رأى في المنام النبي محمد صلى الله عليه وسلم في ليلة من ليالي رمضان، وأمره فيما يتعلق بالقدس بأن يحصن قلعتها ليصد الكافرين عنها، ويزين حرمها بحوض للماء، وأن ينفق على فقرائها، وأن يزين صخرة الله، ويعيد بناء مدينة القدس. وفي اليوم التالي لحلم السلطان، أرسل من فوره صرة إلى القدس، ونقل مصطفى باشا من ولاية مصر إلى ولاية الشام ليشرف على ترميم القدس، فقام الأخير بحشد جمع غفير من البنّائين والمهندسين والنحاتين في القاهرة ودمشق وحلب وأرسلهم إلى القدس⁴.

لقد استمر بناء السور خمس سنوات (943هـ/1536م-947هـ/1540م) واقتضى نفقات طائلة. وتبين سجلات المحكمة الشرعية في القدس أنه كانت تنظم حملات لتمويل المشروع في مختلف أنحاء فلسطين، (لإكمال المخصصات التي كانت ترصدها الحكومة المركزية لهذا الغرض) استغرق العمل في تجديد عمارة سور القدس خمس سنوات⁵.

1- العسلي، كامل (1992). القدس تحت الحكم العثماني (1516م-1831م). في «القدس في التاريخ. تحرير كامل جميل العسلي. الجامعة الأردنية. عمان. الأردن». ص: 233 - 271.

2- العارف (1999). مرجع سابق. ص: 264 - 265.

3- الشورة، صالح (2016). اسهام السلطان سليمان القانوني في التطور العمراني الجديد. مجلة المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية. المجلد (3). العدد (2). ص: 323 - 346.

4- الشورة (2016). مرجع سابق.

5- العسلي (1992): العارف (1999). ص: 265.



سور القدس قديم، منذ عهد اليبوسيين الكنعانيين، ولكن السور الذي جددته السلطان سليمان هو بقايا السور المتهدم الذي شيده الأيوبيون أي الذي كان موجوداً في العصور الوسطى¹. ومرّ بعدة مراحل، على مدى السنوات الخمس، منها²:

(1) أوكل السلطان النظر على بناء السور للأمير « بيرام جاويش »، فأصبح الناظر الشرعي على بناء سور القدس، الذي لجأ بدوره إلى القاهرة للتعاقد مع أصحاب الخبرة لبناء سور جديد للقدس مقابل عشرة آلاف قطعة عثمانية.

(2) بدأت التبرعات تصل لصالح بناء سور القدس في أوائل شهر رجب سنة 943هـ/1536م واستمرت حتى أواخر شهر ذي القعدة سنة 944هـ/1537م. وكان إجمالي ما جُمع وانفق على بناء سور القدس (469486 درهماً فضياً مُخلّفاً) إضافة إلى نقودٍ غير معروفة العدد تسلمها محمد جلبي النقاش الأمين على بناء سور القدس.

السور العثماني يعيد تعريف المدينة معمارياً: انتهت أعمال بناء سور القدس في سنة 947هـ/1540م، وكانت أبعاده كما يلي³:

- يبلغ ارتفاعه ما بين 12,5م-13,5م.

- يبلغ طوله من ناحية الشمال حوالي 1300م.

- يبلغ طوله من ناحية الشرق 920م.

- يبلغ طوله من الجنوب 1080م.

- يبلغ طوله من ناحية الغرب 695م.

نجم عن تدمير السور وبنائه وترميمه أن توسّعت المساحة المسوّرة لمدينة القدس؛ فأصبحت أكبر مما كانت عليه إبان حكم المماليك، واختلف تخطيط المدينة بشكل كبير، وتحولت القدس من مدينة مربعة صغيرة لا تتجاوز مساحتها المسورة (700) دونم إلى مدينة غير منتظمة الشكل تبلغ مساحتها المسورة (868) دونماً، ولذلك دخلت بعض الحارات التي امتدت مبانيها خارج السور إلى داخله بعد إعادة بنائه من جديد من الناحيتين الغربية والجنوبية⁴.

1- الشورة (2016). مرجع سابق.

2- غوشة، محمد هاشم (2009). القدس في العهد العثماني. ص: 91-89؛ الشورة (2016)؛ محسن (2002). ص: 13.

3- غوشة (2009 أ). مرجع سابق. ص: 91.

4- غوشة (2009 أ). مرجع سابق. ص: 89.

التعليق والخاتمة

بعد هذا السرد التاريخي الموثق للمراحل التي مرت بها أسوار القدس، أصبحنا أمام حقيقة مفادها أن الهوية المعمارية لسور القدس هي هوية عربية-إسلامية لا تحتل التأويل، أو الأسرلة أو التهويد. وهذا ما يسبب قلقاً للاحتلال الإسرائيلي الذي يسعى بكل السبل إل طمس المعالم العربية والإسلامية للمدينة، وتزوير التراكم الحضاري فيها الممتد إلى عمق آلاف السنين.

وأما الاحتلال فإنه يخطط لإزالة هذا السور بالكامل، وقد جاء ذلك صراحة من خلال التصريح الذي أدلى به عضو بلدية الاحتلال «أرييه كينج» في أوائل العام الحالي (2019) باقتراح لهدم أجزاء من سور مدينة القدس التاريخي، بحجة الأمن وتسهيل حياة السكان داخل البلدة القديمة. وبرر كينج اقتراحه قائلاً:

«إن إزالة سور القدس لا يشكل انتهاكاً، فهو ليس موقعاً دينياً، إنما هو مجرد «خطر حضاري واجتماعي وبيئي في قلب القدس، في رأي يجب تدمير الجدار حيث يتسبب وجوده في خطر مروري أو عائق حضري لتنمية المدينة، ولا يمكن الدخول والخروج بسهولة عبر بوابات القدس القديمة، ما يشكل ذلك مشاكل أمنية خطيرة» وأشار «كينج» إلى أنها «فرصة ذهبية لإعادة النظر في فكرة إزالة جدران السلطان المجيد، حيث بنيت على يد طائفة المسلمين واسمه سليمان القانوني، الحاكم العثماني الذي حكم دون منازع في المنطقة في القرن الـ16 وبنى جداراً لحماية مدينة القدس».

إن قراءة متمعنة لهذا التوجه الاحتلالي تضعنا أمام مرحلة متقدمة من التحدي الذي علينا مواجهته بقوة وشجاعة، ونحن نتمسك بحقوقنا الدينية والقانونية والتاريخية التي تكفلها القوانين واللوائح الدولية، والمنظمات الدولية والإنسانية التي تؤمن بعدالة قضيتنا، وعلى رأسها منظمة اليونسكو التي لم تتوان عن الإعلان عن عروبة وإسلامية الآثار والعمران في مواضع متعددة من مدينة القدس. ولا شك في أن سور القدس هو الشاهد الأكبر على عروبة القدس وإسلاميتها بعد المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة وكنيسة القيامة.